تجربة حياة (٣)
وعيٌ وشعر!

نشأت في بيئة شعرية بامتياز، فجدّي لأبي هو الشاعر جريبيع بن صالح رحمه الله، وجدّي لأمي هو الشاعر محمد المالحي رحمه الله، وكانت عمتي ثريا بنت جريبيع رحمها الله (تلك العجوز الثمانينية منحنية الظهر) تعيش معنا وهي شاعرة أيضاً، وأمي وأخوالي يقرضون الشعر، وكل يوم، كل يوم، أسمع أمي وعمتي وكل واحدة منهما تتغنى بقصائد أبيها، وتتفاخر به وبها، وكانت عمتي على وجه الخصوص، وبحكم كبر سنها، وتفرغها، تسمعني دائماً أجزل القصائد كلما جلست في أحضانها أو بالقرب منها، وفي أحد الأيام فرِحَتْ فرحاً شديداً حين فاجأتُها وأنا في السادسة من عمري بقولي لها (عندي قصيدة يا عمة، تردين عليها؟!) وأذكر أن قصيدتي الطفولية تلك كانت عبارة عن شطر واحد ليس له أي معنى (يشهد لنا ابن الرشيدي يوم شلنا قلاله)، من هو ابن الرشيدي ومتى شلنا قلاله؟ لا أدري ولا تسألوني!

فطارت بالبيت، وكلما أتت إلينا عجوز من القرية قالت اسمعوا قصيدة صالح.. كانت - رحمها الله - تشجعني أمام الجميع.

منذ تلك اللحظات الطفولية بدأ يشغلني الشعر، كانت تبدع وتساعدني على الرد وتنسب الرد لي، وهكذا.

خلال هذه الفترة كنت أحب القراءة، وأقرأ كل ما تقع عليه يدي من الكتب والمجلات والجرائد وغيرها، كنت قارئاً نهماً لمجلة النهضة واليقظة والعربي وقافلة الزيت والفيصل والمجلة العربية، وكنت أستعير الكتب من بعض المهتمين

obeikandi.com

بالقراءة من أبناء القرية الكبار، فقرأت للمنفلوطي ولطه حسين وقرأت طوق الحمامة ودع القلق وابدأ الحياة وغيرها من كتب الدين والأدب والفلسفة في بداية حياتي، وقرأت معظم دواوين الشعراء، وفي المدرسة كنا نقرأ قصص الأطفال المصورة، ثم توسعت قراءاتي أكثر في اللغة والأدب والدين حين انتقلت إلى المعهد العلمي.

في الصف الثالث المتوسط تقريباً كنت تدربت جيداً على البدع والرد، وكنت أبدع لأمي أو عمتي أو أخوالي وأطالبهم بالرد، وهم يفعلون المثل وهكذا، ولكن مع دراستي للغة العربية والأدب العربي ولإعجابي بالشعر الفصيح بدأت أحاول كتابة القصيدة الفصيحة حتى أتقنتها في الصف الثالث الثانوي تقريباً بعد أن اكتملت أدواتي اللغوية مع إكمال دراسة ألفية ابن مالك، وألقيت في الحفل الختامي لمعهد جدة العلمي قصيدة ما زلت أحتفظ بها إلى اليوم، وكان الأستاذ حسن القاضي شاعراً مجيداً، تبنَّى موهبتي وشجعني وأشاد بي، أطال الله عمره إن كان حياً، ورحمه ميتاً.

وحين انتقلت للجامعة أصبحت أعتني بالنواحي الجمالية للشعر أكثر، واستمريت مقلاً في الكتابة، متعمقاً في التجربة، متابعاً للحراك الثقافي الذي طغت عليه الحداثة تلك الأيام وبرز نجومها أمثال الغذامي ومعجب الزهراني وعالي القرشي وعثمان الصيني والسريحي وغيرهم وغيرهم، وهنا أذكر قصة الأستاذ العراقي البروفيسور يوسف عزّالدين أستاذ الأدب والنقد - رحمه الله - الذي كان له فضل كبير عليَّ، حيث كان يهتم بقصائدي، وقرر إحداها على الطلاب (قصيدة الهاجرة) ضمن منهج الأدب السعودي الحديث الذي كان يدرسه لنا، ويذكر زملائي في قسم اللغة العربية ذلك، كما عرفني على الأستاذ حمَّاد السالمي مدير مكتب صحيفة الجزيرة في الطائف، ونشر لي الأستاذ حماد قصيدة في كتابه (أشعار المحبين إلى يوسف عزّالدين) مع سيرة ذاتية مقتضبة، وعندما نشر الكتاب قال لي الدكتور يوسف: (الآن خلَّدتَ اسمك يا بني).

كنت، وأنا ابن المدرسة التقليدية، أميل إلى معارضة الحداثيين، وكتبت قصائد عن ذلك منها (صرخة شاعر عربي) وقد تنبأت حينها للحداثة بالفشل وشبهتها بمن يحاول غرس نخلة في سيبيريا أو تربية قطعان الرنّة في الربع الخالي، وفعلاً كما توقعت، أصبح فكر القوم كالنار تأكل بعضها إن لم تجد ما تأكله وظهرت نظريات مثل : النقد للنقد، وما بعد الحداثة، والنسقية، وغيرها، ثم اتجهوا إلى قصيدة النثر ثم إلى الرواية وحاولوا تسميتها بديوان العرب نيابة عن الشعر، لكن كل ذلك لم يفلح، وبقي الشعر عنواناً لهذه اللغة التي من خصائص ألفاظها الفردية (الشاعرية) والأمة العربية واللغة العربية هي منبع الشعر وملاذه أولاً وأخيراً.

بالنسبة للشعر الشعبي بفنونه المختلفة فقد كنت وما زلت مقلّاً فيه، رغم عشقي له، ولا أقوله إلا تسريةً أو تسلية أو تعزية للنفس، وأحياناً أجد متعة في جناسه وطباقه وسجعه وشقره فأقتحم هذا الميدان الرحب، أما الحفلات فإنني لا أشارك فيها إلا نادراً لمجموعة أسباب، منها: أنني لا أملك قدرات شاعر العرضة، ولا أجد الوقت للتفرغ لها ومتابعتها والتدريب عليها، كما أن شعر العرضة يميل إلى البناء والشكل أكثر ويفرض عليه الموقف السطحية، وقليلة هي قصائده التي يشار إليها ببنان الشاعرية، ومنها القليل من المطوّلات التي ترسخ في الذاكرة ويتناقلها الناس، وأخيراً فإن (جنيتي) رومانسية جداً وتهرب حين تسمع الزير.